إلى نورك السجين...

للأستاذ محمود حسن إسماعيل

« من أحلام كوخي البعيد ، أهتز لك بهذه الأنشودة ... لعل فيها سلواناً لعذابك ! »

إنْ رَأَيْتِ النُّورَ مَذْعُو رَ الخُطَى نحوَ المَغِيبِ
وَرَأَيْتِ الطَّيْرَ يَنْعِيـ ـهِ لأَوْرَادِ الكَثِيبِ
وَرَأَيْتِ العِطْرَ نَمَّا نَ عَلَى الأَيْكِ الرَّطِيبِ
وَرَأَيْتِ النَّهْرَ سِرًّا لَفَّهُ صَمْتُ الغُيُوبِ
وَرَأَيْتِ الشَّمْسَ لا شَمْـ ـسَ سِوَى طَيْفِ الغُرُوبِ
وَرَأَيْتِ اللَّيْلَ « قِدِّيـ ـسًا » تَهَادَى لِلصَّلِيبِ
غامِضَ الأَسْرَارِ يَحْكِي سِتْرُهُ نَعْشَ الذُّنُوبِ
فانظُرِي مِنْ شُرْفَةِ القَصْـ ـرِ ونادِي : يا حَبِيبِي !
تُشْرِقُ الدُّنيَا وَيَنْدَى جَوُّهَا مِنْ كلِّ طِيبِ

وَتَهِلُّ الفَرْحَةُ الكُبْـ ـرَى عَلَى قَلْبِي الكَئِيبِ
وَيَعُـودُ الأَمَلُ الهَا رِبُ لِي عَوْدَ الغَرِيبِ !

* * *

وَإِذَا ما الفَجْرُ أَضْفَى نُورَهُ فَوْقَ التِّلَالِ
وَرَكَتْ « مِئْذَنَةُ » النَّا سِكِ مِنْ عِطْرِ «الهِلَالِ»
وَإِلَى اللهِ دَعَا الدَّا عِي بِطُهْـرٍ وَابْتِهَالِ
وَأَفَاقَ الدِّيكُ يَنْعِي خَلْفَ «تابُوتِ» اللَّيَالِي
وَانْتَشَى الوَادِي مِنَ النُّـ ـورِ وَصَهْبَاءِ الظِّلَالِ
وَمَضَى الرَّاعِي إِلَى دُنْـ ـيَاهُ فِي سَفْحِ الجِبَالِ
وَاحْتَسَى العُصْفُورُ فِي الرَّوْ ضِ عَبِيرَ البُرْتُقَالِ
وَتَنَاغَى هَزَجُ « النَّحْـ ـلِ » بِأَفْيَاءِ الدَّوَالِي
وَغَدَا النِّيلُ مِنَ البَهْـ ـجَةِ قُدْسِيَّ الجَمَالِ ...
فانظُرِي مِنْ شُرْفَةِ القَصْـ ـرِ عَلَى الوَادِي خَيَالِي
تَسْكَرُ الدُّنيَا لِمَرْآ كِ تَسَابِيحُ الجَلَالِ
وَتَرَيْنَ السِّحْرَ سِحْرَ الكَوْنِ يَفْنَى فِي خَيَالِي
أَنْتَ سِحْرِي وَفُتُونِي وَصَلَاتِي وَابْتِهَالِي

* * *

لا تَظُنِّي نُورَكِ العُلْـ ـوِيَّ تَفْنِيهِ القُيُودُ
هُوَ كَوْنٌ عَبْقَرِيٌّ لا تُوَاتِيهِ الحُدُودُ
وَهْوَ دُنْيَا مِنْ صَفَاءٍ لا يُسَامِيهَا الوُجُودُ
رَفْرَفٌ لِلخُلْدِ لا يَرْ قَى لِشَطَّيْهِ الخُلُودُ
تَهْرَمُ الدُّنْيَا وَتَبْلَى وَهْوَ شَعْشَاعٌ جَدِيدُ
مَالَهُ مِنْ مُهْجَتِي (م) إِلَّا التَّغَنِّي وَالسُّجُودُ
فاسْكُبِيهِ فَوْقَ عُمْرٍ كَادَ يُبْلِيهِ الصُّدُودُ
أَنا ظَمْآنُ ... وَلَكِنْ خانَ أَيَّامِي الوُرُودُ !
وَعَلَى كَفَّيْكِ أَقْدَا حِي وَخَمْرِي وَالنَّشِيدُ ..
فَدَعِي الأَغْلَالَ ما شَا ءَتْ غَدًا يَبْلَى الحَدِيدُ
قَدْ رَعَى اللهُ هَوَانَا وَأَظَلَّتْهُ العُهُودُ
ما الَّذِي يَبْقَى سِوَى أَنْ يُشْرِقَ الفَجْرُ السَّعِيدُ !

— انظر إلى طفلنا يا عزيزي .. كيف يهيم وراء الفراشات هه ... هه ... أتذكر يوم لقيتني لأول مرة على ضفاف البحيرة في حديقة كهذه ، فجئت إليّ فصددتُ عنك ... ثم ... يا لله لشد ما تزدحم الصور في مخيلتي ! ثم جئت إليّ وكلمتني كلمات .. وكلمتُك كلمات ... وكان يوم الزفاف بعد أسبوع! ...

أتذكر يوم قلت لي إنك تريد طفلاً يدخل على نفسينا السرور وعلى عيشنا الهناء ! فأضحك ... ها هو ذا طفلنا يلهو ويلعب ، وها هي ذي الحياة تبسم لنا وتضحك ! تعال ياطفلي أقبلك. تعال فأنت الذي أذقتني طعم الهناء ....

وقام الزوج يطبع على ثغر زوجته قبلة أودعها كل معاني الحب والاخلاص . قالت الوردة :

— الآن فهمت معنى الأمومة ومعنى الزواج

* * *

كانت الشمس ترسل أول شعاع لها فتنبه شجيرات الورد الناعس عندما جاءت إليها الجنية تقبلها قبلة الصباح وتسألها عما بها فتجيبها بصوت هادئ حزين :

— آه ! لن أتمنى بعد اليوم شيئاً ! أريد أن أرجع فتاة لأكون أماً !

صبوح الدبه المنجد